الشعر الجاهلى

الأمة العربية من أذكى الأمم وأصفاها قريحة، وأكثرها استعدادًا للرقى. ولكنها انزوت بطبيعة بلادها فى جوف الصحراء فرضيت بحالتها، ورغبت فى البقاء عليها، واكتسبت من حريتـها المطلقة نوعًا من الإعجاب، ففخرت على غيـرها. وحـسب البدوى نفـسه أفـضل ما يكون إدراكًـا، وأكمل مـا يكون أخلاقًـا. تعود الحـرية فى أعمـاله، فكان كل رئيس قبـيلة مقيـدًا برأى أهله وعشيرته. وكـان العربى كريمًا يجود بكل شىء، وكان سيـفه ورمحه ورحله كل ما يملك. يناديه أصغـر إنسان باسمه فلان ابن فلان. ومع أنـه كان ميالا إلى المساواة، وإلى النوع الذى يسمـونه الآن "ديمقراطية" كان يرى نفـسه قد خص بمزايا ليست لغيره من الأمم الأخرى، مزايا فى جنسه وأخلاقه، وعاداته ولغتـه، وكل شىء لديه، فتـرفع عن الصناعات والأعـمال، ووكل ذلك إلى الخدم والموالى والعـسد، وامتـاز هو بالشجاعـة والكرم والذكاء، قوة الخـيال الشعرى، وبلاغة الكلام.

أما الـعصبـية فكـانت أشد مـا تكون عند العرب، وهى التى حـفظت كيـانهم، كما أنهـا كانت من الأسبـاب التى هاجت الحرب بينهم. فقـد كان العربى يجود بكل شىء فى سـبيل نصرة قومه وعز قبـيلته، وهو مخلص كل الإخلاص، لأن ذلك أصبح لديه من أغراض الحياة لحفظ نفسه وأهله.

نشأ العربى على هذه الحرية والسذاجة فى العـيش، ووهبه صفاء سمائه وصفاء قريحته سهولة الكلام، واكتسب من سهولة عيشه الرضا بما لديه. فلم يكن له هـذا النوع من القلق فـى الفكر، الذى يدعـو إلى البـحث وحب

الاستطلاع. وكان يتهاون بضروب الآلام، شأن كل شجاع. ولم يكن يهتم بما سيكون فى غده، ولا بالبحث والتنقيب فى أسرار الحياة. وكل ما يعرف عن حكمائهم وكهانهم جمل تشتمل على نصائح، وعبارات مملوءة بالحكم والعبرة.

هذه الحياة الفطرية بما فيها من البساطة والسذاجة والأخلاق، من كرم وشجاعة ووفاء، هى كل الشعر العربى الجاهلى، أو الشعر العربى الجاهلى هو كل ذلك. كان العربى يصف فى شعره ما يراه، ويتكلم عما يشعر به فى نفسه من عواطف وفضائل. وقد تكلم وعبر عما يجول بخاطره بنفس الشجاعة والإقدام اللذين كانا له فى الحياة.

والعرب أكثر الأمم اهتمامًا بالشعر، واشتغالا به، فلا تكاد تجد عربيًا إلا نطق بالشعر، وقال الأبيات والقصائد، سواء فى ذلك رجالهم ونساؤهم وبناتهم وصبيانهم. لأن الشعر طبيعة من طبائعهم، وسجية من سجاياهم، فما هو إلا أن يحرك نفس العربى داع صغير أو كبير لينفتق لسانه بالكلام البليغ، وليسترسل فى القول استرسالا، فيبدع ويغرب، ويستولى على النفوس استيلاء، ويقود الجماعات ويذكى الحروب، ويصلح ذات البين، ويفعل فى النفس فعل الكأس.

ذلك لصفاء قريحته، ولصفاء جوه، ولسذاجة فكره، وبساطة عيشه، ولحاجته إلى الغناء والتفاخر بحسبه، والدفاع عن نفسه وأهله. ولأن طبيعة بلاده الجافة ذات الشكل الواحد لم تلهمه ولم توح إليه من أنواع الجمال غير جمال القول بالتعبير عما يجول بخاطره، وإظهار عواطفه إظهارًا ساذجًا. غاب عنه جمال الطبيعة من حقول وخمائل ومن جبال وتلال مكللة بالأشجار

والأزهار. وندر لديه جريان الماء وهدوء الجو، فلم ير إلا الصحراء المحرقة ذات الفضاء اللانهائى - على قول المنطقيين - والنخل المصعد فى السماء على شكل واحد فأثر ذلك فى خياله، وجعله أيضًا لا يعرف التغيير. ولكنه إنسان له نفس ككل النفوس، تتطلع إلى الكلام والتعبير عما هو كامن فيها وعما يراه وتفهمه من هذه الحياة. وهى من النفوس الصافية، تحب الجمال وتميل إلى فهمه، وليس لها من وسائل الفنون إلا البلاغة، فاندفع بطبيعته إلى الشعر، ووصف طبيعة بلاده، وتفنن فى ذكر ما يحيط به، من حيوان وغيره، ووصف كل دقيقة وعظيمة فى ذلك. ثم أحب جمال المرأة لأنه كل ما عنده من الجمال، فشبهها بالكواكب والماء الزلال، وتصبب ونسب بها، لأنه رأى فى الحب تسلية للنفس، وشفاء للغليل، ووسيلة من وسائل الارتياح والسرور، وداعيًا من دواعى البلاغة. فأكثر من ذكرها فى أشعاره، وبدأ قصائده بذلك وهام بها هيام اليونان بذكر آلهتهم فى أشعارهم، فأصبح الغزل طابعًا من طوابع الشعر العربى، وأبدع فى ذلك أيما إبداع[1].

---

(١) وكثيرًا ما ألهم الشعراء ذكر المرأة الإبداع فى القول ورقة العواطف فكانوا يذكرونها فى حروبهم، كما قال عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وكانوا يفتخرون بشجاعتهم أمام المرأة، لأن المرأة كانت تحت الشجاع وتفخر به، كما ذكر بشر بن عوانه فى أول قصيدته الشهيرة:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت ... وقد لاقى الهزبر أخاك بشرًا

إذًا لرأيت ليثًا أم ليثًا ... هزبرًا أغلبا لاقى هزبرًا

وإنك لتجد فى الشعر الجاهلى من الرقة والانسجام ما يأخذ بالألباب مثل قول عدى بن زيد.

وعاذلة هبت بليل تلومنى ... فلما غلت فى اللوم قلت لها اقصدى

أعاذل أن اللوم فى غير كنهه ... على ثنى من غيك المتردد =

هذا ولم يقف الباحثون إلى الآن على أثر يدل على أصل الشعر العربى ولا كيف بدأ. وما وصل إلينا من الشعر القديم لا يدل إلا على متانة فى الصناعة، مما لا يصح أن يكون من أوائل الشعر. والمظنون أن الشعر القديم لم يصل إلينا لعدم تدوينه، ولانتشار الأمية فى ذلك الزمن. إذ لا يمكن أن يصل الشاعر إلى هذا الضرب من البيان، ولا إلى هذا الإتقان إلا بتعمل كبير، وجهد عظيم، خصوصًا هذه الأوزان المختلفة والقوافى المتعددة. وإذا ذهبنا إلى أبعد ما قيل من الشعر الجاهلى قبل الإسلام بنحو قرنين - على بعض الأقوال - نرى أن هذا لا يكفى لما وصل إليه من الإتقان والامتاع فى الصناعة، ولا لوصول الأفكار لهذا الحد من الحكمة فى القول كما فى معلقة زهير، وشعر عدى بن زيد وغيرهما. لأن الأفراد لا يمكن أن يصلوا إلى

= أعاذل أن الجهل من لذة الفتى ... وإن المنايا للرجال بمرصد
أعاذل ما أرادنى الرشاد من الفتى ... وأبعده منه إذا لم يسدد
أعاذل من تكتب له النار يلقها ... كفاحًا ومن يكتب له الفوز يسعد
أعاذل قد لاقيت ما يزع الفتى ... وطابقت فى الحجلين مشى المقيد
أعاذل ما يدريك أن منيتى ... إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد
. . . . . .
ذرينى فإنى إنما لى ما مضى ... أمامى من مالى إذا خف عودى
وحمت لميقاتى إلى منيتى ... وغورت أن وسدت أو لم أوسد
وللوارث الباقى من المال فاتركى ... عتابى فإنى مصلح غير مفسد
كفى زاجرًا للمرء أيام دهره ... تروح له بالواعظات وتغتدى
بليت وأبليت الرجال وأصبحت ... سنون طوال قد أتت قبل مولدى

والقصيدة طويلة تتمتها فى جمهرة أشعار العرب (طبعة بولاق ص ١٠٢).

ذلك إلا بعد تربية طويلة للمجموع يتخرج فيها أصحاب المذاهب الخاصة. فلعل الشعر الجاهلى أقدم مما نظن بكثير.

قالوا وأول ما انفتق لسان العربى بالشعر كان فى سيره مع الإبل أثناء أسفاره، التى كان يقطع فيها الصحراء المحرقة الواسعة الفضاء، وهو على جملة يهتز هذه الهزات المتوالية، التى تطوى وتنشر جسمه طيًا ونشرًا. فدعاه ذلك إلى الحداء ليقطع الوقت، وليخفف على هذا الحيوان ألم السير، إذ بحنوه إلى سماع الغناء ينسى هذا الحيوان الصبور كل ألم. وقد ظهر فى حركات سيره شىء يشبه أن يكون سببه الطرب من سماع الغناء، فى ارتفاع عنقه وانخفاضه. قالوا وأخذ العربى أوزان الشعر من حركات الإبل فى سيرها.

ومن المحتمل أن يكون هذا صحيحًا، وأن يكون ما دعا العربى لقول الشعر كثرة أسفاره وإتعابه من اختراق الصحراء. ولكن العربى ككل الناس من جهة العواطف والإحساسات والاستعداد إلى قول الشعر. بل ظهر أن العربى أكثر الناس استعدادًا لقرض الشعر، وأكثر من قال شعرًا، ولا تكاد تجد أمه أخرى أنتج خيالها من الكلام الموزون المقفى مثل ما أنتج العرب. ولا يوجد عدد من الشعراء فى أمة من الأمم أكثر من عدد شعراء العرب. لأن الشعر كان سجية من سجاياهم، فكان لديهم أشبه بالحديث والسامرات عند غيرهم. فلماذا لا تكون هذه الطبيعة النقية، وهذا الاستعداد السليم هما اللذان دعيا العرب لقول الشعر من أول الأمر؟ وأن الحياة البدوية، والحاجة إلى الدفاع عن النفس والأهل هى التى فنقت لسانه بهذا الكلام البليغ؟ وأن مفاخره جعلته يملك أعنة الكلام، ويتصرف هذا التصرف فى القول؟ وأن هذه

الصبغة التى فى شعره فطرية ناشئة من أسباب كثيرة، بعضها خاص باللغة وغنائها، والبيئة وما فيها.

وقد قال بعض المستشرقين مثل رينان ومن جرى على مذهبه: إن العرب ككل الأمم السامية ليس لها أساطير فى شعرها، ولا فى عقائدها، وأن هذا يدل على ضيق الخيال لديهم لأن الأساطير والخرافات إنما هى نتيجة سعة الخيال، ونتيجة الحيرة وحب البحث والاطلاع وأن الفكر كلما كان قلقًا متطلعًا إلى غاية أسمى، وكان بعيد الغرض، دعاه ذلك إلى حب البحث، وإلى أن يكون فى حركة مستمرة للوصول إلى ما يريد، كأنه يبحث عن حقيقة خفية. وكلما أكثر من البحث ظهرت له أشياء، ووقف على معان جديدة، وتبينت له أسرار دقيقة فى الحياة، وعرف ما لم يكن يعرف قبلا. قالوا كل ذلك يظهر أثره فى بلاغات الأمم من نظم ونثر، كما هى الحال عند الأمم الآرية كاليونان وغيرهم من الأمم الأوروبية. وقالوا سعة الخيال، ولا يقصدون بالخيال ما نقصده نحن من المجاز والتشبيه، وإنما يقصدون سعة الخيال فى تصور الحقائق وفى إدراك الموضوعات المختلفة. لأن أساطير اليونان كان منشأها البحث عن الخالق وتصوره، فلم ترشدهم عقولهم إلا إلى ضرب من الخرافات، كتبوا عنها وألفوا فيها الأسفار، ونصبوا لها التماثيل، وتوسعوا فى الفنون فاستدل الباحثون بذلك على قوة الذكاء وسعة الخيال، وحب الجمال والافتنان فيه. وربما كان هذا من الأسباب التى حملتهم على طول الكلام، والميل إلى القصص فى النثر والشعر، لأن هذا النوع من البلاغة ليس إلا ضربًا من سعة الخيال فى التصور والفكر والتعبير. ومن هنا يكون تعدد الأنواع فى ضروب البلاغة نظمًا ونثرًا.

أنكر المستشرقون هذا النوع من سعة الخيال عند الأمم السامية، وفى جملتها العرب. ولكنهم يبالغون فى ذلك، لأن العرب تصوروا آلهة متعددة ونصبوا لها الأصنام قبل الإسلام، وكانت لهم أساطير[1]، وتخيلوا لشعرائهم نفوسًا أخرى من الجن كانت توحى إليهم عبقريتهم، وعدوهم أصحابًا لكبار الشعراء ورووا عنهم الشعر. قالوا فكان صاحب امرئ القيس لافظ بن لاخط، وصاحب عبيد بن الأبرص هبير، وغير ذلك من الشعراء الكبار[2]. أما إن الأمم السامية ذات أفكار هادئة غير قلقة، راضية بصدق وصحة ما ترى، فهذا صحيح فى جملته. لأنهم أقنع الأمم فى حب الاستطلاع، وأرضاهم بما لديهم. ولذلك أيضًا كانوا أقلهم فلسفة، وأكثرهم سذاجة فى حالتهم الاجتماعية، وفى نظام حكوماتهم. كما يظهر ذلك فى بلاغتهم من شعر ونثر، وكلها أشبه بالحقائق العريانة كما يقولون.

وقد قال جماعة من المستشرقين، خصوصًا الألمانيين منهم، إن نسبة الشعر الجاهلى إلى قائليه لا يصح الاعتماد عليها ولا التصديق بها. لأنه مهما صحت قوة الذاكرة عند العرب ومهما قويت حافظتهم، فإنها لا تحتمل رواية كل هذا الشعر كما كان، وكان نطق به الشعراء الجاهليون، لأن الذاكرة كثيرًا ما تخون، والأمانة فى النقل نقلا صحيحًا لا تكون إلا بالكتابة والتقييد، وأن حمادا الراوية، جامع المعلقات وراويها متهم فى روايته وفى صحة قوله، ومطعون فى ذمته بإقرار عن نفسه، وبرواية معاصريه عنه. واستدلوا على

(١) ولكن لم يظهر ذلك فى شعرهم ظهوره عند الأمم الأخرى.

(٢) راجع جمهرة أشعار العرب فى ذلك (ص ١٧، ١٨).

ذلك بما فى روايات الأغانى وغيرها، مثل مـا ذكر فى ترجمته[1]: "سمعت المفضل الضبى يقول قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أنشده فلا يصح أبدًا، فقيل له وكيف ذلك، أيخطئ فى روايته أم يلحن؟ قال ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يـردون من أخطأ إلى الصواب. لا. ولكنه رجل عـالم بلغات العرب وأشعـارها، ومذاهب الشعراء ومعـانيهم، فلا يزال يقول الشعـر يشبه مذهب رجـل، ويدخله فى شعـره، ويحمل ذلك عنه فى الآفـاق، فتخـتلط أشعار القدماء ولا يتميـز الصحيح منها إلا عند عالم نقاد وأين ذلك"[2] وأن خلفا الأحـمر وأمثـاله خلقوا من الشـعر ما لم يكن مـوجودًا فى الجـاهلية، وكذبوا على الشعراء، وكان يكفى نسبة الشعر إلى أى إنسان، حتى لقد كانوا كثيرًا ما يحفظون الكلام بدون معرفة قائله، ولذلك تجدهم يعدونه من قصيدة لشاعـر ومرة لشـاعر آخـر من قصـيدة أخـرى. كل هذا يدل على خلط فى الروايات ويحمل على عدم الثقة بهـا. قالوا ومما يضعف الاعتماد على الرواة تعدد الأشخاص المسمين باسم واحد. فقد ظهر أن هناك سبعة عشر رجلا كل منهم يسمى بامرئ القـيس، وأربعة يسمون بعلقمة، وثلاثة بعنتـرة، وخمسة بطرفة. وهـذا أيضًا من الأسبـاب التى تدعو إلى الخلط فى مـعرفـة صاحب القصيدة. وزادوا على ذلك أن الرواة كانوا يستبدلون بالعبارة البدوية المحضة، التى لا يفهمـونها من الكلام القديم، عبـارات وألفاظًا من عندهم على الوزن والقافيـة نفسها، لتكون أوضح لهـم ولغيرهم. قالوا وإذا صدقنـا ما قيل عن حماد الراوية، من أنه كـان يعى ضمن محفوظاته سـتين قصيدة تبـتدئ كلها

(١) انظر فى هذا الموضوع من الأغانى الجزء الخامس فى ترجمة حـماد إقرار حماد فى حضرة المهدى بما زاده من عنده فى كلام زهير بن أبى سلمى.

(٢) أغانى جـ ٥ ص ١٧٢.

"ببانت سعاد" ولا نعرف منها الآن إلا قصيدة كعب بن زهير، ظهر لنا قيمة ما يقوله الرواة وصحة ما يروى عنهم. وقالوا أكثر من ذلك[1]. وقد لخص هذه الآراء المسيو "رينيه بسيه" رئيس القسم الأدبى بجامعة الجزائر فى رسالة له سماها "الشعر العربى قبل الإسلام".

الرواية فى ذاتها متهمة، ولا يصح الأخذ بها علميًا إن كانت رواية ككل الروايات. ولكن المسلمين عنوا عناية خاصة بالرواية، حتى أصبحت من الطرق العلمية، لأن كثيرًا من أحكام الدين مبنية عليها، ولا يمكن أن تكون قاعدة علمية أثبت وأصح مما وضعوه فى رواية الحديث، وما قرروه من الشروط فى ذلك، مما يصح الآن أن يكون من أحدث الطرق العلمية. ولكن هل هذه العناية بنفسها وجدت فى رواية الشعر؟ هذا ما لا يمكن الجزم به، بدليل ما نسب إلى الرواة وبدليل ما نراه من الاختلاف فى ذلك، فإن بعض الأشعار لا يزال قائله مجهولا. أما إذا اتبعنا الطرق العلمية المحضة، التى تقول إنه لا يصح الجزم بالشىء إلا إذا ثبت بدليل قطعى، فلا يصح التصديق بذلك تصديقًا تامًا، لأنه يحتمل عدم الصحة. وأما إذا نظرنا نظرة المتساهل الذى يحسن الظن، ولا يفيد نفسه بالقواعد والقوانين العلمية، فإننا لا نجارى هؤلاء فى شكهم، خصوصًا أنه فى المستحيل أن تكون كل هذه الأشعار أو أكثرها مخترعة، أو منسوبة إلى غير قائلها بدون سبب ولا داع إلى ذلك، وإذا كذب الرواة أو دسوا على بعض الشعراء شيئًا، فإن ذلك لا يمكن أن يصل إلى مقدار ما نعرفه من الشعر الجاهلى. وكيف يمكن اختراع هذا الشعر الكثير وبه من العبارات والأساليب ما يدل على أه بدوى صرف؟ وأى إنسان

(1) La Poesie arabe ante - islamique Page 59. Paris Leroux 1880.

يمكنه أن يحصل على هذه القدرة، ليشغل وقته بذلك وينسبه إلى غيره، وكان أولى به أن يذكره لنفسه ليفخر به. وأى فائدة لأى معتوه أن يتعب فى التأليف ويقول هو لفلان. أنرمى كل الرواة وعلماء اللغة والأدب بالكذب أو نتهمهم بعدم الثقة، لأن حمادًا وغيره كذب مرة أو مرتين؟ وهل يصح أن نحكم على البلد أجمع بالمرض لأن بها إنسانًا مريضًا؟

إن المستشرقين يبالغون فى ذلك، كما يبالغ بعض المؤرخين فى نسبة التاريخ اليونانى القديم أجمعه إلى الأساطير والخرافات. والحق أن المسألة لا تزال موضع البحث؟ ولا يمكن الجزم بشىء فى ذلك الآن. غير أننا نرجح أن كثيرًا من الشعر القديم منسوب كذبًا إلى الشعراء المعروفين. ولكن هذا لا يطن فى صبغته العربية من حيث الأسلوب.

***